▲ سورة الذاريات

تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي

▲ تفسير الآيات رقم [1- 8]

{وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1)
فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2)
فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3)
فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (4)
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5)
وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6)
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (7)
إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8)}

لما ختم سبحانه ق بالتذكير بالوعيد، افتتح هذه بالقسم البالغ على صدقه، فقال مناسباً بين القسم والمقسم عليه: {والذاريات} أي الرياح التي من شأنها الإطارة والرمي والتفريق والإذهاب، وأكد ذلك بقوله : {ذرواً * } أي بما تصرفها فيه الملائكة، قال الأصبهاني: الرياح تحت أجنحة الكروبيين حملة العرش، فتهيج من ثم فتقع بعجلة الشمس ثم تهيج عن عجلة الشمس فتقع برؤوس الجبال، ثم من رؤوس الجبال تقع في البر، فأما الشمال فإنها تمر

تحت عدن فتأخذ من عرف طيبها فتمر على أرواح الصـــديقين، ثم تأخذ حدها من كرســـي بنات نعش إلى مغرب الشـــمس، وتأتي الدبور حدها من مغرب الشمس إلى مطلع سهيل، وتأتي الجنوب حدها من مطلع سهيل إلى مطلع الشـــمس، وتأتي الصـــبا حدها من مطلع الشـــمس إلى كرســـي بنات نعش، فلا تدخل هذه في حد هذه ولا هذه في حد هذه.

ولما كانت غاية الذرو التهيئة للحمل، قال مســبباً ومعقباً: {فالحاملات} أي من السحب التي فرقت الريح أصلها وهو الأبخرة، وأطارته في الجو في جهة العلو ثم جمعته، فانعقد سحاباً فبسطه مع الالتئام فحمله الله ما أوجد فيه من مراده من الماء والصـــواعق وغيرها {وقراً *} أي حملاً ثقيلاً، وقد كان قبل ذلك لا يرى شـــيء منه ولا من محموله، فتحققوا قدرة الله على كل ما يريد وإن لم تروا أسبابه، ولا يغرنكم بالله الغرور.

ولما كان الحمل إنما هو الوضـــع في الأماكن التي يراد ضـــرها أو نفعها، وكان سير الغمام بعد الحمل في ساحة الجو وباحة الأفق من غير ممسك يرى أدل على القدرة، ولا سيما إذا كان مع الجري الذي يضرب به لسرعته المثل، وكذا جري السفن في باحة البحر بعد ثقلها بالوسق قال: {فالجاريات يسراً *} أي جرياً ذا سهولة.

ولما كان في غاية الدلالة على تمام القدرة بغريق محمولها في الأراضـــي المجتاحة ولا ســـيما إن تباعدت أماكن صـــبه ومواطن ســـكبه، وكان ذلك التفريق هو غاية الجري المترتب على الحمل المترتب على الذرو، قال مســـبباً معقباً مشـــيراً بالتفعيل، إلى غرابة فصـــلها لقطراتها وبداعة تفريقها

لرحمتها من عذابها، وغير ذلك من أحوال الجاريات وتصـريف الساريات: {فالمقسمات} أي من السحب بما تصرفها فيه الملائكة عليهم السلام، وكذا السفن بما يصرفها الله به من الرياح اللينة أو العاصفة من سلامة وعطب وسـرعة وإبطاء، وكذا غيرهما من كل أمر تصـرفه الملائكة بين العباد وتقسمه.

ولما كان المحمول مختلفاً كما تقدم، قال جامعاً لذلك: {أمراً *} أي من الرحمة أو العذاب، قال الرازي في اللوامع: وهذه أقسام يقسم الله بها ولا يقسم بها الخلق لأن قسم الخلق استشهاد على صحة قولهم بمن يعلم السر كالعلانية وهو الله تعالى، وقسم الخالق إرادة تأكيد الخبر في نفوسهم فيقسم ببعض بدائع خلقه على وجه يوجب الاعتبار ويدل على توحيده، فالرياح بهبوبها وسكونها لتأليف السحاب وتذرية الطعام واختلاف الهواء وعصوفها مرة ولينها أخرى والسـحاب بنحو وقوفها مثقلات بالماء من غير عماد وصـرفها في وقت الغنى عنها بما لو دامت لأهلكت، ولو انقطعت لم يقدر أحد على قطرة منها، وبتفريق المطر وإلا هلك الحرث والنسـل، والسـفن بتسخير البحر لجريانها وتقدير الريح لها بما لو زاد لغرق، ولو ركد لأهلك، والملائكة تقسم الأمور بأمر ربها، كل ذلك دليل على وجود الصانع الحكيم، والفاطر العليم، القادر الماجد الكريم.

ولما كانوا يكذبون بالوعيد، أكد الجواب بعد التأكيد بنفس القسم فقال: {إنما} أي الذي {توعدون} أي من الوعد للطائع والوعيد للعاصـي، وإن لم تروا أسـبابه، ولما كان ما توعدوا به لتحقق وقوعه وقربه كأنه موجود يخاطبهم

عن نفسه، عبر عن المصدر باسم الفاعل فقال: {لصادق *} أي مطابق الإخبار به للواقع، وسترون مطابقته له إذا وقع، وتعلمون أن ذلك الواقع حق ثابت لا خيال لمطابقته للخبر، قال ابن برجان: واعلم أن الله عز وجل ما أقسم بقسم إلا مطابقاً معناه لمعان في المقسم من أجله بسراج منير يهدي به الله تعالى من يشاء، وإنما يعمي عن رؤية ذلك ظواهر إشخاص للمحسوسات، ويصم عن إسماع ندائها ضوضاء المشاهدات، ولولا ذلك لنودوا بها من مكان قريب، وقال البيضاوي: كأنه استدل باقتداره على هذه الأشياء العجيبة المخالفة لمقتضى الطبيعة على اقتداره على البعث.

ولما كان أجل وعيدهم وما يتعلق بالجزاء يوم القيامة وكانوا ينكرونه، قال: {وإن الدين} أي المجازاة لكل أحد بما كسب يوم البعث، والشرع الذي أرسلت به هذا النبي الكريم {لواقع *} لا بد منه وإن أنكرتم ذلك، فيظهر دينه على الدين كله كما وعد بذلك، ثم نقيم الناس كلهم للحساب.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير في برهانه: لما ذكر سبحانه المواعيد الأخروية في سورة ق وعظيم تلك الأحوال من لدن قوله {وجاءت سكرة الموت بالحق} إلى آخر السورة، أتبع سبحانه ذلك بالقسم على وقوعه وصدقه فقال: {والذاريات ذرواً} إلى قوله: {إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع} والدين الجزاء، أي أنهم سيجازون على ما كان منهم ويوفون قسط أعمالهم {فلا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون} {إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً}. ولما أقسم الله على صدق وعده ووقوع الجزاء، عقب ذلك بتكذيبهم بالجزاء وازدرائهم فقال {يسألون أيان يوم الدين} ثم ذكر تعالى حال الفريقين

وانتهاء الطريقين إلى قوله: {وفي الأرض آيات للموقنين} فوبخ تعالى من لم يعمل فكره ولا بسط نظره فيما أودع سبحانه في العالم من العجائب، وأعقب بذكر إشـــارات إلى أحوال الأمم وما أعقبهم تكذيبهم، وكل هذا تنبيه لبســـط النظر إلى قوله: {ومن كل شـــيء خلقنا} بقوله: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} أي إن هذا دأبهم وعادتهم حتى كأنهم تعاهدوا عليه وألقاه بعضهم إلى بعض فقال تعالى: {تواصوا به أم هم قوم طاغون} أي عجباً لهم في جريهم على التكذيب والفســـاد في مضـــمار واحد، ثم قال تعالى: {بل هم قوم طاغون} أي أن علة تكذيبهم هي التي اتحدت فاتحد معلولها، والعلة طغيانهم وإظلام قلوبهم بما ســـبق {ولو شـــئنا لأتينا كل نفس هداها} ثم زاد نبيه عليه الســـلام أشـــياء مما ورد على طريقة تخييره عليه الســـلام في أمرهم من قوله تعالى: {فتول عنهم فما أنت بملوم} ثم أشار تعالى بقوله: {وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين} إلى أن إحراز أجره عليه الســـــلام إنما هو في التذكار والدعاء إلى الله تعالى، ثم ينفع الله بذلك من ســبقت له الســعادة {إنما يســتجيب الذين يســمعون} ثم أخبر نبيه عليه الصلاة والسلام بأن تكذيبه سينالهم قسط ونصيب مما نال غيرهم من ارتكب مرتكبهم، وســـلك مســـلكهم، فقال تعالى {وإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم} إلى آخر السورة– انتهى.

ولما أخبر ســـــبحانه عن ثبات خبره، أتبعه الإخبار عن وهي كلامهم، فقال مقسماً عليه لمبالغتهم في تأكيد مضامينه مع التناقض بفعله الجميل وصنعه الجليل، إشـــــارة إلى أنهم لم يتخلقوا من أخلاقه الحســـــنى بقول ولا فعل:

{والســـــماء ذات الحبك *} أي الآيات المحتبكة بطرائق النجوم المحكمة، الحســـنة الصـــنعة، الجيدة الرصـــف والزينة، حتى كأنها منســـوجة، الجميلة الصـــنعة الجليلة الآثار، الجامعة بين القطع والاختلاط والاتفاق والاختلاف، وأصـــل الحبك الإحكام في امتداد واطراد– قاله الرازي في اللوامع. {إنكم} يا معشـــــر قريش {لفي قول} محيط بكم في أمر القرآن والآتي به وجميع أمر دينكم وغيره مما تريدون به إبطال الدين الحق {مختلف *} كاختلاف طرائق الســـــماء التي لا تكاد تنتظم، ولا يعرف أولها من آخرها، واختلاف هذه الأشـياء المقسـم بها من أول السـورة واختلاف غاياتها لكنه مع ذلك متدافع، وإن كنتم تجتهدون في تزيينه وتقريبه للأفهام وتحســـــينه فإنه لا يكاد إذا عرضـــه الناقد على الفكر النافذ ينضـــبط بضـــابط ولا يرتبط برابط، بل تارة تقولون: هذا شعر فيلزمكم وصفه بما تصفون به الشعر من الاتساق بالوزن المجرد والروي المتحد، والعذوبة والرشـاقة، وتارة تقولون: هذا سـحر فيلزمكم مع الإقرار بالعجز عنه أنه لا حقائق له والواقع أنه لا يتأمله ذو فهم إلا رأى حقائقه أثبت من الجبال، وتارة تقولون : أضـــــغاث أحلام، فيلزمكم أنه لا ينضبط بضابط، ولا يكون له مفهوم يحصل، ولا يعجز أحد عن تلفيق مثله، فقد أبطلتم قولكم: إنه شعر وإنه سحر.

وتارة تقولون: إنه كهانة فيلزمكم أن تعتقدوا منه ما تعتقدون في أقوال الكهان من الإخبار بالمغيبات وإظهار الخبء وفصل الحكم، فأبطلتم ما مضى من قولكم أضـغاث أحلام وسـحر وشـعر، وتارة تقولون، إنه جنون، فقد نقضـتم جميع أقوالكم الماضـية وناديتم على أنفسكم بالمباهتة، تقولون في الآتي به:

إنه شــاعر وســاحر ومجنون وكاهن وكاذب، وكل قول منها ينقض الآخر، وأنتم تدعون أنكم أصدق الناس وأبعدهم عن عار الكذب، وأنكم أعقل الناس وأنصـــفهم، فقد تباعد أولاً ما بين أقوالكم، ثم ما بينها وبين أفعالكم، فكان اختلاف طرائق النجوم دالاًّ على مانع مختار تام العلم كامل القدرة، وكذا اختلاف قولكم على هذا الوجه مع ما لكم من العقول دالّ على قاهر لكم على ذلك، فهما آيتان في الآفاق وفي أنفسكم.

▲ تفسير الآيات رقم [9- 18]

{يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9)
قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10)
الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (11)
يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12)
يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13)
ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14)
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15)
آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16)
كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17)
وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18)}

ولما كان هذا الاختلاف مما لا يكاد يصدق لأنه لا يقع فيه عاقل، بين سببه بأنهم مغلوبون عليه بقهر يد القدرة فقال: {يؤفك} أي يصــرف بأيســر أمر

وأسهله عن سنن الاستقامة، ويقلب من وجهه لقفاه }عنه} أي يصدر صرفه عن هذا القول مجازاً لما يلزمه من عاره، فهو لأجل ذلك يقوله {من أفك *} أي قلبه قلب قاهر أي تبين بهذا الصرف الذي هو أعظم الصرف أنه حكم في الأزل حكماً ثابتاً جامعاً، فصار لا يصد عنه قول ولا فعل إلا كان مقلوباً وجهه إلى قفاه لا يمكن أن يأتي منه بشـــيء على وجهه، فكأنه لا مأفوك سواه لشدة افكه وعجيب أمره.

ولما كان الكذب الإخبار بما لا حقيقة له وتعمد الافتراء، وكان الخرص الكذب والافتراء والاختلاف وكل قول بالظن، قال معلماً بما لهم على قولهم هذا: قتلوا أو قتلتم- هكذا كان الأصل ولكنه أظهر الوصف الذي استحقوه بقولهم: {قتل الخراصون *} أي حصل بأيسر أمر قتل الكذابين ولا محالة من كل قاتل، والمتقولين بالظن المنقطعين للكلام من أصـــل لا يصـــلح للخرص وهو القطع، وهم الذين يقولون عن غير سند من كتاب أو سنة أو أثارة من علم، وهو دعاء أو خبر لأنه مجاب: {الذين هم} خاصـــة {في غمرة} أي أعماق من العمى والضـــلال، غارقون في ســكرهم وجهلهم الذي غمرهم، ولذلك هم مضطربون اضطراب من هو يمشي في معظم البحر فهو لا يكاد ينتظم له أمر من قول ولا فعل ولا حال {ساهون *} أي عريقون في السـهو وهو النسـيان والغفلة والحيرة وذهاب القلب إلى غيره ما يهمه، ففاعل ذلك ذو ألوان متخالفة من هول ما هو فيه وشدة كربه.

ولما حكم بسـهوهم، دل عليه بقوله: {يسئلون} أي حيناً بعد حين على سبيل الاستمرار استهزاء بقولهم: {أيان} أي متى وأي حين {يوم الدين *} أي وقوع

الجزاء الذي يخبرنا به، ولولا أنهم بهذه الحالة لتذكروا من أنفســـهم أنه ليس أحد منهم يبث عبيده أو أجراءه في عمل من الأعمال إلا وهو يحاسبهم على أعمالهم، وينظر قطعاً في أحوالهم، ويحكم بينهم في أقوالهم وأفعالهم فكيف يظن بأحكم الحاكمين أن يترك عبيدة الذين خلقهم على هذا النظام المحكم وأبدع لهم هذين الخافقين وهيأ لأجلهم فيهما ما لا ضـــرورة لهم في التزود للمعاد إلى سواه فيتركهم سدى يوجدهم عبثاً.

ولما تقرر أمر القيامة بالتعبير بساهون قال: {يوم} أي نقول يوم {هم على النار يفتنون *} أي يرمون فيحرقون ويعذبون ويصبحون... من الاختلاف مقولاً لهم على سـبيل القرع والتوبيخ: {ذوقوا فتنتكم}... العقوبة من الفتنة المحيطة.

.. واستعجالكم ما توعدون استهزاء وتكذيباً {هذا الذي كنتم به تستعجلون *} أي تطلبون عجلته... {إن المتقين} أي الذين كانت التقوى لهم وصفاً ثابتاً {في جنات} أي بساتين عظيمة نحن داخلها... {وعيون *}... {آخذين... ما} أي كل شيء {آتاهم... ربهم} أي المحسن إليهم... بتمام علمه وشامل قدرته وهو لا يدع لهم لذة إلا أنحفهم بها فيقبلونها بغاية الرغبة لأنها في غاية النفاسة. ولما كان هذا أمراً عظيماً يذهب الوهم في سببه كل مذهب، علله بقوله مؤكداً لنسبة الكفار لهم إلى الإساءة: {إنهم كانوا} أي كوناً هو كالجبلة. ولما كان الإنســـان إما يكون مطيعاً في مجموع عمره أو في بعضـه... على الطاعة، وكانت الطاعة تجبُّ ما قبلها، وتكون سـبباً في تبديل السيئات حسنات فضلاً منه سبحانه، فكان كل من القسمين مطيعاً في

جميع زمانه، نزع الجارّ فقال: {قبل ذلك} أي في دار العمل، وقيل: أخذوا ما فرض عليهم بغاية القبول لأنهم كانوا قبل فرض الفرائض يعملون على المحبة وهو معنى {محسـنين *} أي في معاملة الخالق والخلائق، يعبدون الله كأنهم يرونه، ثم فسـر إحسـانهم معبراً عنه بما هو في غاية المبالغة بقوله: {كانوا} أي لما عندهم من الإجلال له والحب فيه بحيث كأنهم مطبوعون عليه، ولغاية التأكيد وقع الإسـناد إليهم مرتين {قليلاً من الليل} الذي هو وقت الراحات وقضاء الشهوات، وأكد المعنى بإثبات «ما» فقال: {ما يهجعون *} أي يفعلون الهجوع وهو النوم الخفيف القليل، فما ظنك بما فوقه لأن الجملة تثبت هجوعهم وهو النوم للراحة، وكسـر التعب وما ينفيه، وذكر الليل لتحقق المعنى فإن الهجوع النوم ليلاً، فالمعنى أنهم يحيون أكثر الليل وينامون أقله. ولما كان المحسـن لا يرى نفسـه إلا مقصـراً، قال دالاًّ على ذلك وعلى أن تهجدهم يتصل بآخر الليل مؤكداً بالإسناد مرتين أيضاً: {وبالأسحار} قال ابن زيد: السحر: السدس الأخير من الليل {هم} أي دائماً بظواهرهم وبواطنهم {يسـتغفرون *} أي يعدون مع هذا الاجتهاد أنفسـهم مذنبين ويسـألون غفران ذنوبهم لوفور علمهم بالله وأنهم لا يقدرون على أن يقدروه حق قدره وإن اجتهدوا لقول سيد الخلق «لا أحصي ثناء عليك» وإبراز الضـمير دال على أن غيرهم لو فعل هذا ليلة لأعجب بنفسـه ورأى أنه لا أحد أفضل منه، وعلى أن استغفارهم في الكثرة يقتضـي أنهم يكونون بحيث يظن أنهم أحق بالتذلل من المصـرين على المعاصـي، فإن استغفارهم ذلك على بصـيرة لأنهم نظروا ما له سـبحانه في الآفاق وفي أنفسـهم من الآيات

والحكم البالغة التي لا تحصـــى فعلموا أنه أهل لأن يطاع ويخشـــى فاجتهدوا وتركوا الهجوع، وأجروا الدموع، ثم قابلوا ذلك بنعمه فإذا الأعمال في غاية التقصير فأقبلوا على الاستغفار عالمين بأنه لا يمكن أن يقدر حق قدره.

▲ تفسير الآيات رقم [19– 25]

{وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19)

وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20)

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21)

وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22)

فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24)

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25)}

ولما ذكر معاملتهم للخالق، أتبعه المعاملة للخلائق تكميلاً لحقيقة الإحســـان فقال: {وفي أموالهم} أي كل أصـــنافها {حق} أي نصـــيب ثابت. ولما كان الســـياق هنا للإحســـان، فكان إحســـانهم لفرط محبتهم إلى عباد الله لا يوقفهم عن الواجب بخلاف ما في «ســـأل» من ســـياق المصـــلين مطلقاً ترك وصـــفه بالمعلومية فقال: {للســـائل} أي الذي ينبه على حاجته بســـؤال الناس وهو المتكفف {والمحروم *} وهو المتعفف الذي لا يجد ما يغنيه، ولا يسأل الناس ولا يفطن له ليتصـــدق عليه، وهذه صـــفة أهل الصـــفة رضـــي الله عنهم، فالمحســـنون يعرفون صـــاحب هذا الوصـــف لما لهم من نافذ البصـــيرة ولله بهم من العناية.

ولما دل إقسامه بالسماء وما قبلها من الذاريات على ما له في العلويات من الآيـات إلى أن ختم بـالأموال التي تنبتهـا الأرض، فكـان التقـدير : ففي السـماوات آيات للمؤمنين دالات على عظمته واسـتحقاقه للعبادة بغاية الخضـوع رغباً ورهباً، عطف عليه قوله: {وفي الأرض} مما فيه أيضـاً من الاختلاف بالمعادن الكثيرة المتباينـة مع اتحاد أصـلها والنبات والحيوان والجماد والبر والبحر وغير ذلك من الأسـرار الدالة على الفاعل المختار {آيات} أي دلالات عظيمات هي مع وضوحها بعد التأمل خفيات {للموقنين *} الذين صـار الإيقان لهم غريزة ثابتة، فهم لذلك يتفطنون لرؤية ما فيها مع ما يلابسهم منها من الأسباب فيشغلهم ولا يرون أكثر أسباب ما فيها من الآيات فأداهم ذلك إلى الإيقان بما نبهت عليه الرسل مما تستقل به العقول من البعث وغيره، قال القشـيري: من الآيات فيها أنها تحمل كل شـيء، فكذلك العارف يحمل كل أحد ومن استثقل أحداً أو تبرم برؤيته أحداً فلغيبته عن الحقيقة ومطالعة الخلق بعين التفرقة. وأهل الحقائق لا يتصـفون بهذه الصـفة، ومن الآيات فيها أنه يلقى عليها كل قذارة وقمامة فتنبت كل زهر ونور وكذلك العارف يتشـرب ما يلقى من الجفاء ولا يترشـح إلا بكل خلق عليّ وشيمة زكية.

ولما أشـار إلى آيات الآفاق، أتبعها آيات الأنفس فقال: {وفي أنفسـكم} أي من الآيات التي شـاركتم بها الجماد، ثم فارقتموه بالنمو ثم بالحس ثم فارقتم الحيوان الخسـيس بالعقل الموصـل إلى بدائع العلوم ودقائق الفهوم. ولما كانت أظهر الآيات، سبب عن التنبيه عليها الإنكار عليهم في ترك الاعتبار

بها فقال: {أفلا تبصـرون *} أي بأبصـاركم وبصـائركم فتتأملوا ما في ذلك من الآيات وتتفكروا هل ترون أسـباب أكثرها، فإن كل هذه آيات دالة على قدرة الصانع على كل ما يريد واختياره، وأنه ما خلق هذا لخلق سدى، فلا بد أن يجمعهم إليه للعرض عليه، فالموقنون لا يزالون ينظرون في أمثال هذا بعيون باصـرة وأفهام نافذة، فكلما رأوا آية اعتبروا بها، فازدادوا إيماناً إلى إيمانهم، وإيقاناً مع إيقانهم، وأول نظرهم فما أودعوا من الآيات الحاجة، فمن تأملها علم أنه عبد، ومتى علم ذلك علم أن له رباً غير محتاج، ومن أبصر جميع الصفات والأسماء فنفذ فهمه في شفاف الكائنات، فارتقى إلى أعلى الدرجات.

ولما بان بما قدمته في {المقسـمات أمراً} ما في جهة العلو من الأسـباب الموجبة للنعمة والعذاب، قال: {وفي السـماء} أي جهة العلو {رزقكم} بما يأتي من المطر والرياح والحر والبرد وغير ذلك مما رتبه سـبحانه لمنافع العباد {وما توعدون *} وجميع ما أتتكم به الرسل من الوعد والوعيد والصعقة والزلزال وغير ذلك من الأهوال وموجبات النكال، وكذا الرحمة والخير والنعمة وكل ما يتعلق به الآمال، فكما أنكم تصـدقون بذلك وأنتم لا ترونه فكذلك صـدقوا بالجنة والنار وإن لم تروها، فإنه لا فرق بين ماء ينزله الله فيكون منه رياض وجنات وشوك وأدواء ومرارات، وسموم وعقارب وحيات، وخشاش وسباع وحشرات، وبين ماء يعيد به الأموات، ثم يحشرهم إلى جنان ونيران، فكما أنه لا مرية في إظهار هذا الغيب فكذلك لا لبس في إظهار ذلك الغيب، ومن المعنى أيضاً أنك لا تشتغل برزق فإنه في السماء، ولا

سـبيل لك إلى العروج إليها، واشـتغل بما كلفته من الخدمة لمن عنده الرزق ففي السماء الرزق وإليها يرفع العمل، فإن أردت أن ينزل إليك رزقك فأصعد إليها الصـالح من عملك، ولهذا قالوا: الصـلاة فرع باب الرزق {واصـطبر عليها لا نسئلك رزقاً نحن نرزقك}.

ولما أقسـم بما له من المقدورات لمن وقف مع المحسـوسـات المشـهورات، فترقوا بذلك إلى أعلى الدرجات، وانكشـف ما له من الكمال انكشـافاً تاماً، وعلم أن في خزائنه سـبحانه كل ما أخبرت عنه به الرسـل من وعد ووعيد، سبب عنه قوله مقسماً بنفسه الأقدس لكن بصفة مألوفة فقال: {فورب} أي مبدع ومدبر {السـماء والأرض} بما أودع فيهما مما علمتموه وما لم تعلموه {إنه} أي الذي توعدونه من الخير والشـر والجنة والنار وتقدم الإقسـام عليه أنه صـادق {لحق} أي ثابت يطابقه الواقع فقد جمع الحق مع الصـدق {مثل ما أنكم} أي وأنتم مسـاوون لبقية ما في الأرض من الجمادات وغيرها {تنطقون *} نطقاً مجدداً في كل وقت مسـتمراً، ليس هو بخيال ولا سـحر، أي أن ذلك لحق مثل ما أن هذا حق، فالذي جعل لكم قوة النطق من بين ما في الأرض بأسـباب لا ترونها وتحصـونها، ومع ما عداكم من ذلك بأسـباب مثل ذلك قادر على الإتيان بوعده من الرزق وغيره ما دمتم تحتاجون إلى ذلك بما جعل فيكم من الحياة التي يصـح بها العلم الناشـئ عنه النطق المحوج إلى الرزق من أي جهة أرادوا، وإن لم تروا أسـبابه كما أنه لو أراد لأنطق جميع من في السماوات والأرض من الجمادات بما يقيمه لها من الأسباب التي أقامها لكم وإن لم تروا ذلك.

ولما بين بما مضى من القسم وما أتبعه من أنه أودع في السماوات والأرض وما بينهما أسباباً صالحة للإتيان بما وعدناه من الخير، وما توعدنا به من الشر وإن كنا لم نرها وهو قادر مختار، فصار ذلك كالمشاهد، ولا وجه للتكذيب بوعد ولا وعيد، دل عليه وصوره بما شوهد من أحوال الأمم وبدأ– لأن السياق للمحسنين– برأس المحسنين من أهل هذه الأنباء الذي أخبرته الملائكة عليهم السلام بما سببه معه وإن كان على غير العادة. فتعجب زوجته من ذلك مع كونها أعلى نساء ذلك الزمان، وأتبع قصته قصة لوط ابن أخيه عليهما السلام لاتصال ما بين قصتيهما في الزمان، ولمناسبة عذابهم لما أقسم به في أول السورة، فإنه سبحانه أمر الذاريات فاقتلعتهم بقراهم وحملتها كما تحمل السحاب ثم كبتهم فرجمتهم، والأرض فخسفت بهم، والملائكة الموكلة بمثل ذلك، ففعلوا جميع ما أمروا به ورأوهم في قريتهم وقصدوهم بالمكر لأنهم خفي عليهم أمرهم، وأتوا الخليل عليه السلام وهو أعلى ذلك الزمان وهم في ذلك ولم يعلم أول الأمر بشيء من حالهم ولا ظنهم إلا آدميين، فقال مفخماً لأمر القصة بتخصيص الخطاب لأعلى الخلق وأنفذهم فهما إشارة إلى أنه لا يفهم هذا حق فهمه سواه على طريق الاستفهام على عادة العرب في الإعلام بالأمور الماضية وإن كان المخبر عالماً بأن المخاطب لا علم له بذلك لأن المقصود ليس إلا التنبيه على أن ذلك الأمر مما ينبغي الاهتمام به والبحث فيه ليعرف ما فيه، من الأمور الجليلة؛ قال أبو حيان: تقرير لتجتمع نفس المخاطب كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب فتقرره: هل سمعت ذلك أم لا؟ فكأنك تقتضي بأن

يقول: لا، ويستطعمك الحديث– انتهى. {هل أتاك} يا أكمل الخلق {حديث ضـيف} عبر عنهم بلفظ الواحد إشـارة إلى اتحاد كلمتهم {إبراهيم *} وهو خليلنا، ودل على أنه لم يعرف شـيئاً مما أتوا به دالاًّ على أنهم جمع {المكرمين *} أي الذين هم أهل الكرامة، وأكرمهم إبراهيم عليه السلام بقوله وفعله، ففي حديثه ذلك آية بينة على ما بين في هذه السـورة من قدرة الله تعالى وصدق وعده ووعيده، مع ما فيه من التسلية لك ولمن تبعك، والبشارة بإكرام المصدق وإهانة المكذب، قال القشيري: وقيل: كان عددهم اثني عشر ملكاً، وقيل: جبريل عليه السلام، وكان معه تسعة، وقيل: كانوا ثلاثة: {إذ} أي حديثهم حين {دخلوا عليه} أي دخول اسـتعلاء مخالف لدخول بقية الضيوف {فقالوا سلاماً} أي نحدث، ثم استأنف الأخبار عن جوابه بقوله: {قال} أي بلسانه: {سلام} أي ثابت دائم، فهو أحسن من تحيتهم.

ولما كان ما ذكر من دخولهم وسلامهم غير مستغرب عند المخاطبين بهذا، وكانت القصة قد ابتدئت بما دل على غرابة ما يقص منها، تشوف السامع إلى ما كان بعد هذا فأجيب بقوله: {قوم} أي ذوو قوة على ما يحاولونه ويقومون فيه {منكرون *} أي حالهم لإلباسـه أهل لأن ينكره المنكر، وقدم هذا على موضعه الذي كان أليق به فيما يظهر بادي الرأي، وإيضاحاً لأن السـياق لخفاء الأسـباب على الآدمي وبعدها وإن كانت في غاية الظهور والقرب ولو أنه غاية العلو فإن إنكاره لهم كان متأخراً عن إحضـار الأكل لكونهم لم يأكلوا، وهذا القول كان في نفسه ولم يواجههم به.

▲ تفسير الآيات رقم [26– 37]

{فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26)
فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27)
فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28)
فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29)
قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30)
قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31)
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32)
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33)
مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34)
فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35)
فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36)
وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (37)}

ولما أشار إلى أنه حين إنكاره لهم لم يعرف من أي نوع هم ولا خصوص ما هم فيه، رتب على رده لسلامهم أنه أسرع غاية الإسراع في إحضار ما ينبغي للضيف على ظن أنهم آدميون فقال: {فراغ} أي ذهب في خفية وخفة ومواضع سترة عن أعينهم كما هو من آداب الضيافة خوفاً من أن يمنعوه أو يكدر عليهم الانتظار : {إلى أهله} أي الذين عندهم بقرة {فجاء بعجل} أي فتى من أولاد البقر {سمين *} قد شواه وأنضجه {فقربه إليهم} ولما أخبر بما ينبغي الإخبار به من أمر الضيافة إلا الأكل، كان من المعلوم أن التقدير :

فكان كأنه قيل: فماذا قال لهم حين لم يأكلوا؟ قيل: {قال} أي متأدباً غاية التأدب ملوحاً بالإنكار: {ألا تأكلون *} أي منه.

ولما كان كأنه قيل: فلم يأكلوا، سبب عنه قوله: {فأوجس} أي أضمر إضمار الحال في جميع سـره {منهم خيفة} لأجل إنكاره عدم أكلهم فإنه لما رأى إعراضـهم عن الطعام ذهب وهمه في سـبب إتيانهم إليه كل مذهب {قالوا} مؤنسـين له: {لا تخف} وأعلموه بأنهم رسـل الله {وبشـروه بغلام} على شـيخوخته ويأس امرأته بالطعن في السـن بعد عقمها، وهو إسـحاق عليه السلام. ولما كان السياق لخفاء الأسباب كان في الذروة وصفه بقوله: {عليم *} أي مجبول جبلة مهيأة للعلم ولا يموت حتى يظهر علمه بالفعل في أوانه.

ولما كانا بعيدين عن قبول الولد، تسـبب عن ذلك قوله، دالاًّ على أن الولد إسـحاق مع الدلالة على أن خفاء الأسـباب لا يؤثر في وجود المسـببات: {فأقبلت} أي من سـماع هذا الكلام {امرأته} ولما كانت قد امتلأت عجباً، عبر بالظرف فقال: {في صرة} أي صيحة وكرب من الصرير قد أحاط بها، فذهب وهمهما في ذلك كل مذهب {فصـكت} أي ضـربت بسـبب تعجبها بأطراف أناملها فعل المتعجب {وجهها} لتلاشـي أسـباب الولد في علمها بسبب العادة مع معرفتها بأن العبرة في الأسباب وإن كانت سليمة بالمسبب لا بها، قال البغوي: وأصل الصك ضرب الشيء بالشيء العريض {وقالت} تريد أن تسـتبين الأمر هل الولد منها أم من غيرها: {عجوز} ومع العجز

{عقيم *} فهي في حال شبابها لم تكن تقبل الحبل، قال القشيري رحمه الله تعالى: قيل: إنها كانت يومئذ ابنة ثمان وتسعين سنة.

ولما كان في هذا أشد تشوف إلى الجواب، استأنف تعالى الجواب بقوله: {قالوا كذلك} أي مثل ما قلناه من هذه البشـرى العظيمة {قال ربك} أي المحسن إليك بتأهيلك لذلك على ما ذكرت من حالك وبتأهيلك من قبل الاتصال بخليله صلى الله عليه وسلم. ولما كان محط تعجبها أن ذلك كان بأيام شبابها أولى، عللوا إخبارهم تأكيداً له مؤكدين لأن قولها وفعلها فعل المنكر وإن كانت ما أرادت به إلا الاستثبات: {إنه هو} أي وحده {العليم} الذي يضع الأشياء في أحق مواضعها فرتب عظمة هذا المولود على كل من عقمك وعجزك؛ ثم عللوا ذلك بقولهم: {الحكيم *} أي المحيط العلم فهو كذلك لا يعجزه شيء لما تقدم من البرهان في سورة طه أن إحاطة العلم مستلزم شمول القدرة.

ولما كان الخليل عليه السلام أعلم أهل زمانه بالأمور الإلهية، علم أن اجتماع الملائكة على تلك الهيئة التي يراهم فيها ليس لهذه البشارة فقط، فلذلك استأنف تعالى الجواب لمن كان كأنه قال: ما كان من حاله وحالهم بعد هذا؟ بقوله: {قال} أي قال مسبباً عما رأى من حالهم: {فما خطبكم} أي خبركم العظيم {أيها المرسلون *} أي لأمر عظيم {قالوا} قاطعين بالتأكيد بأن مضمون خبرهم حتم لا بد منه، ولا مدخل للشفاعة فيه: {إنا أرسلنا} أي بإرسال من تعلم {إلى قوم مجرمين *} أي هم في غاية القوة على ما يحاولونه وقد صرفوا ما أنعم الله به عليهم من القوة في قطع ما يحق وصله

ووصـــل ما يحق قطعه {لنرســـل عليهم} أي من الســـماء التي فيها ما وعد العباد به وتوعدوا {حجارة من طين *} أي مهيأ للاحتراق والإحراق {مسومة} أي معلمة بعلامة العذاب المخصــــوص . ولما كان قد رأوا اهتمامه بالعلم بخبرهم خشــية من أن يكونوا أرســلوا لعذاب أحد يعز عليه أمره، أمنوا خوفه بوصـف الإحسـان فقالوا: {عند ربك} أي المحسـن إليك بهذه البشـارة وغيرها {للمسرفين *} أي المتجاوزين للحدود غير قانعين بما أبيح لهم.

ولما كان من المعلوم أن القوم يكونون تارة في مدر وتارة في شــــعر، وعلم من الآيات الســـالفة أن العذاب مختص بذوي الإســـراف، ســـبب عن ذلك مفصـــــلاً لخبرهم قوله تعالى معلماً أنهم في مدر : {فأخرجنا} بما لنا من العظمة بعد أن ذهبت رســـلنا إليهم ووقعت بينهم وبين لوط عليهم الســـــلام محاولات معروفة لم تدع الحال هنا إلى ذكرها، والملائكة ســـــبب عذابهم، وأهل القريـة المحـاولون في أمرهم لا يعرفون ذلك، وهذه العبـارة إن كـانت إخباراً لنا كانت خبراً عما وقع لنعتبر به، وإن كانت لإبراهيم عليه الســـــلام كان معناها أن الحكم الأعظم وقع بإخراجهم بشـــــارة له بنجاتهم {من كان فيها} أي قراها. ولما كان القلب عماد البدن الذي به صـــلاحه أو فســـاده، فكان عمله أفضـل الأعمال أنه به يكون استسـلام الأعضـاء أو جماحها، بدأ به فقال: {من المؤمنين *} أي المصدقين بقلوبهم لأنا لا نسويهم بالمجرمين فخلصـناهم من العذاب على قلتهم وضـعفهم وقوة المخالفين وكثرتهم، وسبب عن التعبس والســـتر والتعرض للظواهر والبواطن قوله: {فما وجدنا} أســـند الأمر إليه تشـريفاً لرسـله إعلاماً بأن فعلهم فعله {فيها غير بيت} واحد وهو

بيت لوط ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وقيل: كان عدة الناجين منهم ثلاثة عشـــر، ولما كان الإســـلام قد تطلق على الظاهر فقط وإن كان المراد هنا الأخص أخره فقال: {من المســلمين *} أي العريقين في الإســلام الظاهر والباطن لله من غير اعتراض أصـــلاً وهم إبراهيم وآله عليهم الســـلام فإنهم أول من وجد منه الإسـلام الأتم، وتسـموا به كما مضـى في البقرة وسـموا به أتباعهم، فكان هذا البيت الواحد صـــادقاً عليه الإيمان الذي هو التصـــديق والإسلام الذي هو الانقياد، قال البغوي: وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً لأنه ما آمن مؤمن إلا وهو مسلم.

يعني لما بينها من التلازم وإن اختلف المفهومان، وقال الأصـبهاني: وقيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر.

ولما وكان إبقاء آثار المهلكين أدل على قدرة من أهلكهم قال: {وتركنا} أي بما لنا من العظمة {فيها} أي تلك القرى بما أوقعنا بها من العذاب الذي كان مبدؤه أنسب شيء بفعل الذاريات من السحاب فإنا قلعنا قراهم كلها وصعدت في الجو كالغمام إلى عنان السماء ولم يشعر أحد من أهلها بشيء من ذلك ثم قلبت وأتبعت الحجارة ثم خسف بها وغمرت بالماء الذي لا يشبه شيئاً من مياه الأرض كما أن خباثتهم لم تشـــبه خباثة أحد ممن تقدمهم من أهل الأرض {آية} أي علامة عظيمة على قدرتنا على ما نريد {للذين يخافون} كما تقدم آخر ق أنهم المقصـــودون في الحقيقة بالإنذار لأنهم المنتفعون به دون من قســـا قلبه ولم يعتبر {العذاب الأليم *} أي أن يحل بهم كما حل بهذه القرى في الدنيا من رفع الملائكة لهم في الهواء الذاري إلى عنان

السـماء وقلبهم وإتباعهم الحجارة المحرقة، وغمرهم بالماء المناسـب لفعلهم بنتنه وعدم نفعه، وما ادخر لهم في الآخرة أعظم.

▲ تفسير الآيات رقم [38- 46]

{وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (38)
فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39)
فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)
وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41)
مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42)
وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43)
فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44)
فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45)
وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (46)}

ولما قدم سبحانه أحق القصص الدالة على قسمه وما أقسم عليه بما فيها من خفاء الأسباب مع وجودها، ثم ما فيها من إنزال ما به الوعيد من السماء بالنار والماء الذي أشير إليه بالمقسمات، مع الفرقة بين المسلم والمجرم، أتبعها قصة من أيده بحاملات فيها مطر وبرد ونار مضطرمة، كما مضى بيانه في الأعراف، ثم بعد ذلك بريح فرقت البحر ونشفت أرضه ودخله فرعون والقبط، وهو واضح الأمر في أنه سبب لهلاكهم وهم لا يشعرون به، فقال عاطفاً على المقدر في قصة إبراهيم عليه السلام أو الظاهر في {وفي الأرض} أو على «في» التي في قوله {وتركنا فيها آية للذين يخافون} وهذا

أقرب من غيره وأولى: {وفي موسى} أي في قصته وأمره آية على ذلك عظيمة {إذ أرسلناه} بعظمتنا {إلى فرعون} الذي كان قد أساء إلى إبراهيم عليه السلام بعد عظيم إحسانهم إله وإلى جميع قومه بما أحس إليهم يوسف عليه السلام {بسلطان مبين *} أي معجزات ظاهرة في نفسه منادية من شدة ظهورها بأنها معجزة، فكان فيها دلالة واضحة على صدق وعيده ومع ذلك فلم ينفعهم علمها ولذلك سبب عنه وعقب به قوله: {فتولى} أي كلف نفسه الإعراض بعد ما دعاه علمها إلى الإقبال إليها، وأشار إلى توليه بقوله: {بركنه} أي بسب ما يركن إليه من القوة في نفسه وبأعوانه وجنوده أو بجميع جنوده- كناية عن المبالغة في الإعراض، {وقال} معلماً بعجزه عما أتاه به وهو لا يشعر: {ساحر} ثم ناقض كمناقضتكم فقال بجهله عما يلزم على قوله: {أو مجنون *} أي لاجترائه عليّ مع ما لي من عظيم الملك بمثل هذا الذي يدعو إليه ويتهدد عليه.

ولما وقعت التسلية بهذا للأولياء، قال تعالى محذراً للأعداء: {فأخذناه} أي أخذ غضب وقهر بعظمتنا بما استدرجناه به وأوهناه به من العذاب الذي منه سحاب حامل ماء وبرداً وناراً وصواعق {وجنوده} أي كلهم {فنبذناهم} أي طرحناهم طرح مستهين بهم مستخف لهم كما تطرح الحصيات {في اليم} أي البحر الذي هو أهل لأن يقصد بعد أن سلطنا الريح فغرقته لما ضربه موسى عليه السلام بعصاه ونشفت أرضه، فأيبست ما أبرزت فيه من الطرق لنجاة أوليائنا وهلاك أعدائنا {وهو} أي والحال أن فرعون {مليم *} أي آتٍ بما هو بالغ في استحقاقه الملامة، ويجوز أن يكون حالاً من {أليم} بمعنى

أنه فعل بهم فعل اللائم من ألامه- إذا بالغ في عذله، وصـــار ذا لائمة أي لهم، من ألام- لازماً، وأن يكون مخففاً من لأم المهموز فيكون المعنى: فهو مصلح أي فاعل فعل المصلحين في إنجاء الأولياء وإغراق الأعداء بالالتئام والانطباق عليهم، قال في القاموس: اللوم العدل، لام لوماً وألامه ولومه للمبالغة، وألام: أتى ما يلام عليه أو صـــار ذا لائمة، ولأمه بالهمز كمنعه، نسبه إلى اللوم، والسهم: أصلحه كألامه ولأمه فالتأم، ولا يضر يونس عليه السلام أن يعبر في حقه بنحو هذه العبارة، فإن أسباب اللوم تختلف كما أن أسباب المعاصي تختلف في قوله {وعصوا رسله} [هود: 59]

{وعصى آدم ربه} [طه: 121]

وبحسب ذلك يكون اختلاف نفس اللوام ونفس المعاصي.

ولما أتم قصـة من جمع له السحاب والماء والنار والريح، أتبعها قصـة من أتاهم بريح ذارية لم يوجد قط مثلها، وكان أصلها موجوداً بين ظهرانيهم وهم لا يشعرون، بل قاربت الوصول إليهم وهم يظنونها مما ينفعهم:

{وفي عاد} أي آية عظيمة {إذ} أي حين

{أرسلنا} بعظمتنا {عليهم} إرسـال علو وأخذ {الريح} فأتتهم تحمل سحابة سوداء وهي تذرو الرمل وترمي بالحجارة على كيفية لا تطاق {العقيم *} أي التي لا ثمرة لها فلا تلقح شجراً ولا تنشـئ سحاباً ولا تحمل مطراً ولا رحمة فيها ولا بركة فلذلك أهلكهم هلاك الاســـتئصـــال، ثم بين عقمها وإعقامها بقوله: {ما تذر} أي تترك على حال ردية، وأعرق في النفي فقال: {من شـــيء} ولما كان إهلاكها إنما هو بالفاعل المختار، نبه على ذلك بأداة

الاستعلاء فقال: {أتت عليه} أي إتيان إرادة مرسلها، استعلاها على ظاهره وباطنه، وأما من أريدت رحمته كهود عليه السلام ومن معه رضي الله عنهم فكان لهم روحاً وراحة لا عليهم {إلا جعلته كالرميم *} أي الشـــيء البالي الذي ذهلته الأيام والليالي، فصـــيره البلى إلى حالة الرماد، وهو في كلامهم ما يبس من نبات الأرض ودثر- قاله ابن جريج، وخرج بالتعبير ب «تذر» هود عليه الســـلام ومن معه من المؤمنين رضـــي الله عنهم أجمعين، فإنهم تركتهم على حالة حسنة لم يمسهم منها سوء كما أشير إلى مثل ذلك بأداة الاستعلاء.

ولما تم ما اقتضاه سياق السورة من قصة أهل الريح الذارية، أتبعها قصة من أهلكوا بما يحمله الســـحاب من الريح وما تحمله الريح من صـــوت الصيحة الراجفة الماحقة فقال: {وفي ثمود} أي قوم صالح عليه السلام آية عظيمة كذلك {إذ} أي حين {قيل لهم} ممن لا يخلف المعياد: {تمتعوا} أي بلبن الناقة وغيره مما مكناكم فين من الزرع والنخيل والأبنية في الجبال والســـهول وغير ذلك من جلائل الأمور الذي أمرناكم به ولا تطغوا {حتى حين *} أي وقت ضربناه لآجالكم {فعتوا} أي أوقعوا بسبب إحساننا إليهم العتو، وهو التكبر والإباء {عن أمر ربهم} أي مولاهم الذي أعظم إحســـانه إليهم فعقروا الناقة وأرادوا قتل نبيه عليه السلام {فأخذتهم} بسبب عتوهم أخذ قهر وعذاب {الصاعقة} أي الصيحة العظيمة التي حملتها الريح، فأوصلتها إلى مســـامعهم بغاية العظمة، ورجت ديارهم رجة أزالت أرواحهم بالصـــعق، وقوله: {وهم ينظرون *} دال على أنها كانت في غمام، وكان فيها نار،

ويجوز – مع كونه من النظر – أن يكون أيضـــاً من الانتظار، فإنهم وعدوا نزول العذاب بعد ثلاثة أيام، وجعل لهم في كل يوم علامة وقعت بهم فتحققوا وقوعه اليوم الرابع {فما} أي فتسبب عن ذلك أنه ما {استطاعوا} أي تمكنوا، وأكد النفي فقال: {من قيام} أي بعد مجيئها بأن عاجلتهم بإهلاكها عن القيام.

ولما كان الإنســان قد لا يتمكن من القيام لعارض في رجليه وينتصــف من عدوه بما يرتبه من عقله ويدبره برأيه قال: {وما كانوا} أي كوناً ما {منتصـرين} أي لم يكن فيهم أهلية للانتصـار بوجه، لا بأنفسـهم ولا بناصـر ينصرهم فيطاوعونه في النصرة لأن تهيؤهم لذل سقط بكل اعتبار.

ولما أتم قصة من أهلكوا بما من شأنه الإهلاك وهو الصاعقة، أتبعهم قصة من أهلكوا بما من شـــأنه الإحياء، وهو الماء الذي جل ما يشـــتمل عليه الحلامات التي أثارتها الذاريات، وقد كانوا موجودين في الأرض والســماء – وأسبابه مهيأة – وهم لا يحسون بشيء من ذلك، وأما عبادنا المؤمنون فهيأنا لهم أســباب النجاة من الســفينة وغيرها، وأعلمناهم بها، فكان كل ما أردنا وقاله عنا أولياؤنا فقال مغيراً للأســلوب تنبياً على العظمة بنفســه الإهلاك لكونه بما من شــأن الإحياء والإبقاء والتصــرف في الأســباب: {وقوم} أي وأهلكنا قوم {نوح} على ما كان فيهم من الكثرة وقوة المحاولة والقيام بما يريدونه، ويجوز أن يكون معطوفاً على «فيها» أي وتركناهم آية، ويحســن هذا الإعراب أنهم هلكوا جميعاً وكانوا جميع أهل الأرض، وعم عذابهم جميع

الأرض، كانوا لهم الآية، ويؤيد هذا الإعراب قراءة أي عمرو وحمزة والكسائي بالجر عطفاً على ضمير «فيها».

ولما كان إهلاكهم على عظمه وانتشاره في بعض الزمان، أدخل الجارّ فقال: {من قبل} أي قبل هذه الأمم كلها، ثم علل إهلاكهم بقوله: {إنهم كانوا} خلقاً وطبعاً، لا حيلة لغيرنا من أهل الأسـباب في صـلاحهم {قوماً} أي أقوياء {فاسقين *} أي عريقين في الخروج عن حظيرة الدين.

▲ تفسير الآيات رقم [47- 51]

{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47)

وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (48)

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49)

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50)

وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51)}

ولما كان إهلاكهم بالماء الذي نزل من السـماء، وطلع من الأرض بغير حساب، كان ربما ظن ظان أن كان الخلل كان فيهما، ثم أصلح بعد ذلك كما يقع لبعض من يصـنع من الملوك صـنعاً يبالغ في إتقانه فيختل، قال عاطفاً على ما نصب «يوم» مبيناً أن فعل ذلك ما كان بالاختيار، دالاً على وحدانيته لتمام القدرة الدالة على ما تقدم من أمر البعث: {والسـماء بنيناها} بما لنا من العظمة {بأيد} أي بقوة وشـدة عظيمة لا يقدر قدرها. ولما كانت السـماء أليق لعظمتها وطهارتها بصـفات الإلـهية، قال، وأكد لما يلزم إنكارهم

البعث من الطعن في القدرة: {وإنا} على عظمتنا مع ذلك {لموسعون *} أي أغنياء وقادرون ذوو ســـعة لا تتناهى، أي قدرة، من الوســـع وهو اللطافة، وكذلك أوســـعنا مقدار جرمها وما فيها من الرزق عن أهلها فالأرض كلها على اتساعها كالنقطة في وسط دائرة السماء بما اقتضته صفة الإلهية التي لا يصـح فيها الشـركة أصـلاً، ومطيقون لما لا يحصـى من أمثال لك، ومما هو أعظم منه مما لا يتناهى، ومحيطون بكل شـــيء قدرة وعلماً، وجديرون وحقيقون بأن يكون ذكل من أوصــافنا فنوصــف به لما يشــاهد لنا من القوة على كل ما نريد، فلســـنا كمن يعرفون من الملوك لأنهم إذا فعلوا لا يقدرون على أعظم منه وإن قدروا كان ذلك منهم بكلفة ومشــقة، وســترون في اليوم الآخر ما يتلاشى وما تريدون في جنبه، ومن اتساعنا جعلها بلا عمد مع ما هي عليه من العظمة إلى غير ذلك من الأمور الخارقة للعوائد : {والأرض فرشـناها} كذلك بما لنا من العظمة، فصـارت ممهدة جديرة بأن يسـتقر عليها الأشياء وهي آية على تمهيدنا لأرض الجنة وشقنا لأنهارها وغرسنا لأشجارها {فنعم} أي فتسبب عن ذلك أن يقال في وصفنا: نعم {الماهدون *} أي نحن لكمال قدرتنا، فما نزل من السماء شيء ولا نبع من الأرض شيء إلا بإرادتنا وتقديرنا واختيارنا من الأزل لأنا إذا صـــنعنا شـــيئاً علمنا ما يكون منه من حين إنشــائه إلى حين إنباته، ولا يكون شـــيء منه إلا بتقديرنا، وذلك تذكير بالجنة والنار، فما فوقها من خير فهو آية على الجنة، وما فيها من جبال ووهاد وعر وخروبة فهو آية على النار.

ولما كان الأشـــياء المتضـــادة من الشـــيء الواحد أدل على القدرة من هذا الوجه، قال: {ومن كل شـيء} أي من الحيوان وغيره {خلقنا} بعظمتنا. ولما كان الفلاسفة يقولون: لا ينشأ عن الواحد إلا واحد، قال رداً عليهم: {زوجين} أي مثله شـيئين كل منهما يراوح الآخر من وجه وإن خالفه من آخر، ولا يتم نفع أحدهما إلا بآخر من الحيوان والنبات وغيرها ويدخل فيه الأضـــداد من الغنى والفقر، والحســـن والقبح، والحياة والموت، والضـــياء والظلام، والليل والنهار، والصـحة والسـقم، والبر والبحر، والسـهل والجبل، والشـمس والقمر، والحر والبرد، والســماوات والأرض، وأن الحر والبرد من نفس جهنم آية بينة عليها، وبناءهما على الاعتدال في بعض الأحوال آية على الجنة مذكرة بها مشوقة إليها.

ولما كان ذلك في غاية الدلالة على أن كلاًّ من الزوجين يحتاج إلى الآخر وأنه لا بد أن ينتهي الأمر إلى واحد لا مثل له وأنه لا يحتاج بعد ذلك التنبيه إلى تأمل كبير قال: {لعلكم تذكرون *} فأدغم تاء التفعل الدالة على العلاج والاجتهاد والعمل فصار: فتكونوا عند من ينظر ذلك حق النظر على الرجاء من أن يتذكروا قليلاً من التذكر فيهديكم إلى سواء السبيل.

ولما كان كل شـيء مما سواه لا بد له من ضد يضـاده أو قرين يسد مسده، وأما ســبحانه فلا مثل له لأنه لو كان له مثل لنازعه، فلم يقدر على كل ما يريد {لو كان فيهما آلهة إلا الله لفســدتا} [الأنبياء: 22] وثبت أنه أهلك القرون الأولى بمخالفة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فثبت أن وراء المكلفين عذاباً يحق لهم الفرار منه، وثبت أن كل شـيء غيره محتاج إلى زوجه يثبت

حاجة الكل إليه، وأنه لا كفاية عند شـــيء في كل ما يرام منه، وجب أن لا يفزع إلا إلى الواحد الغني فسـبب عن ذلك قوله: {ففروا} أي أقبلوا وألجؤوا. ولما درب عباده في هذه السـورة بصـفة الربوبية كثيراً، فتأهلوا إلى النفوذ في الغيب، وكانت العبادة لا تكون خالصـة إلا إن علقت بالذات لا لشـيء آخر، ذكر اسم الذات فقال: {إلى الله} أي إلى الذي لا مسمى له من مكافئ، وله الكمال كله، فهو في غاية العلو، فلا يقر ويسـكن أحد إلى محتاج مثله فإن المحتاج لا غنى عنده، ولا يقر سبحانه.

إلا من تجرد عن حضيض عوائقه الجسمية إلى أوج صفاته الروحانية، وذلك من وعيده إلى وعده اللذين دل عليهما بالزوجين، فتنقل السـياق بالتحذير والاسـتعطاف والاسـتدعاء، فهو من باب «لا ملجأ منك إلا إليك أعوذ بك منك» واستمر إلى آخر السـورة في ذكره إشـارة إلى علي أمره، ثم علل بقوله مؤكداً لما لهم من الإنكار: {إني لكم منه} أي لا من غيره {نذير} أي من أن يفر أحد إلى غيره فإنه لا يحصل له قصده.

لما أقام الدليل العقلي الظاهر جداً بما يعلمه أحد في نفسـه على ما قاله في هذا الكلام الوحيد قال: {مبين *} ففرار العامة من الجهل إلى العلم عقداً وسعياً، ومن الكسل إلى التشمير حذراً وحزماً، ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء، وفرار الخاصـة من الخير إلى الشـهود، ومن الرسـوم إلى الأصـول، ومن الحظوظ إلى التجريد، وفرار خاصـة الخاصـة مما دون الحق إلى الحق إشـهاداً في شـهود جلاله واسـتغراقاً في وحدانيته، قال القشـيري: ومن صـح

فراره إلى الله صـــــح فراره مع الله– انتهى . وهو بكمال المتابعة ليس غيره، ومن فهم منه اتحاداً بصفة أو ذات فقد ما حد طريق القوم فعليه لعنه الله.

▲ تفسير الآيات رقم [52– 55]

{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52)
أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (53)
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (54)
وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)}

ولما ثبت أنه لا ملجأ إلا إلى الله الواحد المنزه عن الزوج، وذلك هو الله الذي له الكمال كله، وكان ربما وقع في وهم أن في الوجود من غير الزوجين المعروفين من نفزع إليه كما نفزع إلى وزير الملك وبوابه ونحو ذلك مما يوصل إليه، قال محذراً من سطواته: {ولا تجعلوا} أي بأهوائكم {مع الله} وكرر الاسم الأعظم ولم يضمر تعييناً للمراد لأنه لم يشاركه في التسمية به أحد وتنبيهاً على ما له من صـــــفات الكمال وتعميماً لوجوه المقاصـــــد لئلا يظن، وقيل «معه» إن المراد النهي عن الجعل من جهة الفرار لا من جهة غيرها {إلهاً}.

ولما كان المراد كمال البيان، منع مجاز التجريد منع تعنت من يطعن بتكثير الأسماء كما أشار إليه بقوله {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن} الآية بقوله: {آخر} ثم علل النهي مع التأكيد لطعنهم في نذارته فقال: {إني لكم منه} أي لا من غيره فإن غيره لا يقدر على شـــــيء {نذير} أي محذر من الهلاك

الأبدي بالعقوبة التي لا خلاص منها إن فعلتم ذلك {مبين *} أي لا أقول شيئاً من واضح النقل إلا ودليله ظاهر من صريح العقل. ولما ذكر قولهم المختلف الذي منه تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ونسبته إلى السحر والجنون وغير ذلك من الفنون، ومنه الإشراك مع اعترافهم بأنه لا خالق إلا الله ولا كاشف ضر غيره إلى غير ذلك من أنواع الاضطراب، وأخبر بهلاكتهم على ذلك وحذرهم منه ودل عليه إلى أن ختم بإنذار من اتخذ إلهاً غيره قال مسلياً: {كذلك} أي مثل قول قومك المختلف العظيم الشناعة، البعيد من الصواب، بما له من الاضطراب، وقع لمن قبلهم، ودل على هذا المقدر بقوله مستأنفاً: {ما أتى الذين} ولما كان الرسل إنما كان إرسالهم في بعض الأزمان الماضية ولم يستغرقوا جميعها بالفعل، أثبت الجارّ في قوله: {من قبلهم} وعمم النفي بقوله: {من رسول} أي من عند الله {إلا قالوا} ولو بعضهم برضا الباقين: {ساحر أو مجنون *} لأن الرسول يأتيهم بمخالفة مألوفاتهم التي قادتهم إليها أهواؤهم، والهوى هو الذي أوجب لهم هذا التناقض الظاهر سواء كانت «أو» للتفصيل بأن بعضهم قال واحداً وبعضهم قال آخر، أو كانت للشك لأن الساحر يكون لبيباً فطناً آتياً بما يعجز عنه كثير من الناس، والمجنون بالضد من ذلك، ثم عجب منهم بقوله: {أتواصوا به} أي أوصى بهذا بعض الأولين والآخرين بعضاً.

ولما ساق هذا في أسلوب الاستفهام إشارة إلى قول ينبغي السؤال عن سببه لما له من الخفاء، أجاب عنه بأنهم لم يتواصوا به لأن الأولين ما اجتمعوا مع الآخرين: {بل هم} اجتمعوا في وصف أداهم إلى ذلك.

وهو أنهم {قوم} أي ذوو شــــماخة وكبر {طاغون *} أي عالون في الكفر مسـرفون في الظلم والمعاصـي مجاوزون للمقدار، وأشـار بالضـمير إلى أن الطغيان أمر ذاتي لهم، فهو يمدح منه سبحانه بأنه هو الذي قهرهم بسوقهم إلى هلاكهم بقدرته التامة وعلمه الشامل.

ولما كان صلى الله عليه وسلم، يكاد يتلف نفسه الشريفة- بأبي هو وأمي- غماً عليهم وأسـفاً لتخلصــهم عن الإسـلام وخوفاً أن لا يكون وفى بما عليه من التنبيه والإعلام، ســبب تعالى عن حالهم قوله: {فتولَّ عنهم} أي كلف نفسك الإعراض عن الإبلاغ في إبلاغهم بالمجادلة والصدع بالتغليظ بعد ما تقدم منك من الإبلاغ {فما أنت} بسبب الإعراض بعد الإنذار {بملوم *} أي بمسـتحق الملامة بسـبب إعراض من أعرض منهم عنك، فإني إنما حكمت بذلك لأني إنما قســمت الناس إلى مؤمن تنفعه الذكرى، وطاغ لا ينفعه شــيء، ولذلك قال: {وذكر} أي بالرفق واللين، ولما أصــروا على التكذيب والإعراض حتى أيس منهم، أكد ما ســببه عن التذكير بقوله: {فإن الذكرى} أي التذكر بالنذارة البليغة {تنفع المؤمنين *} أي الذين قدر الله أن يكونوا عريقين في وصــــف الإيمان ولا بد من إكثار التذكير ليغلب ما عندهم من نوازع الحظوظ وصوارف الشهوات، مع ما هم مجبولون عليه من النسيان.

▲ تفسير الآيات رقم [56- 60]

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)
مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57)
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (59)
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (60)}

ولما كان هذا ربما أوهم أن سواهم غير مقدور عليهم، قال مؤكداً بالحصر دالاًّ على أنه هو الذي قسم الناس إلى طاغين ومؤمنين بالعطف على ما تقديره: فما حكم عليهم بذلك الضلال والهدى غيري، وما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب إلا لاستخلاص المؤمنين وإقامة الحجة على الضالين: {وما خلقت الجن والإنس} الذين أكثرهم كافرون {إلا ليعبدون *} أي لينجروا تحت أقضيتي على وجه ينفعون به أنفسهم أو يضرونها لا لشيء يلحقني أنا منه شيء من نفع أو ضرر، فإني بنيتهم على العجز وأودعتهم نوازع الهوى، وركبت فيهم غرائز فهيأتهم لاتباع الهدى، فمن أطاع عقله كان عابداً لي فارّاً إليّ مع جريه تحت الإرادة، عبادة شرعية أمرية يستفيد بها الثواب، ومن أطاع الهوى كان عابداً لي مع مخالفته أمري عبادة إرادية قسرية يستحق بها العقاب، وكل تابع لهواه إذا حقق النظر علم أن الخير في غير ما هو مرتكبه، فما ألزمه ما هو فيه مع علمه بأن غيره خير منه إلا قهر إرادتي، فهذه عبادة لغوية، وذاك عبادة شرعية، وقد مر في آخر هود ما ينفع هنا، وهذا كله معنى قول ابن عباس: إلا ليقروا لي بالعبادة طوعاً وكرهاً.

ولما حصر سبحانه خلقهم في إرادة العبادة، صرح بهذا المفهوم بقوله: {ما أريد منهم} أي في وقت من الأوقات، وعم في النفي بقوله: {من رزق} أي شيء من الأشياء على وجه ينفعني من جلب أو دفع، لأني منزه عن لحاق نفع أو ضر، كما يفعل غيري من الموالي بعبيدهم من الاستكثار بغلاتهم

والاســـتعانة بقواتهم لأني الغني المطلق وكل شــــيء مفتقر إليّ {وما أريد} أصــــلاً {أن يطعمون *} أي أن يرزقوني رزقاً خاصـــاً هو الإطعام، وفيه تعريض بأصنامهم فإنهم كانوا يعملون معها ما ينفعها ويحضرون لها الأكل، فربما أكلتها الكلاب ثم بالت على الأصـنام. ثم لا يصـدهم ذلك، وهذه الآية دليل على أن الرزق أعم من الأكل، والتعبير بالإرادة دالّ على ما قلت إنه مقصـــود بالعبادة. وهو الجري تحت الإرادة، تارة بموافقة الشـــرع وتارة بمخالفته.

ولما كان الاهتمام بأمر الرزق- وقد ضـمنه سـبحانه- شـاغلاً عن كثير من العبادة، وكان الإنســان يظن أن الذي حصــل له ما حواه من الرزق سـعيه، قال حاصراً ذلك مؤكداً إزالة لتلك الظنون معللاً لافتاً الكلام إلى سياق الاسم الأعظم الذي لم يتسم به غيره، نصـاً على المراد وبالغاً من الإرشـاد أقصـى المراد: {إن الله} أي المحيط بجميع صفات الكمال المنزه عن شوائب النقص {هو} أي لا غيره {الرزاق} أي على سـبيل التكرار لكل حي وفي كل وقت. ثم وصـــفه بما يبين هوان ذلك فقال: {ذو القوة} أي التي لا تزول بوجه {المتين *} أي الشديد الدائم الشدة.

ولما أقسـم سـبحانه على الصـدق في وعيدهم، ودل على ذلك حتى بجميع قصد أحوالهم على إرادته. وختم بقوته التي لا حد لها، سبب عن ذلك إيقاعه بالمتوعدين، فقال مؤكداً لأجل إنكارهم: {فإن للذين ظلموا} أي الذين أوقعوا الأشـــياء في غير مواقعها. ولما كان القســـم على ما يوعدون بما يحمل المطر، عبر عن نصيبهم الذي قدره عليهم من ذلك بقوله: {ذنوباً} أي خطاً

من العذاب طويل الشـــر، كأنه من طوله صـــاحب ذنب وهو على ذنوبهم {مثل ذنوب أصـــحابهم} أي الذين تقدم ظلمهم بتكذيب الرســـل وهو في مشابهته له كالدلو الذي يساجل به دلو آخر، وذلك دليل واضح على أن ما يوعدون صـادق، وأن الدين واقع {فلا يستعجلون *} أي يطلبوا أن آتيهم به قبل أوانه اللاحق به، فإن ذلك لا يفعله إلا ناقص، وأنا متعال عن ذلك لا أخاف الفوت ولا يلحقني عجز ولا أوصـــف به، ولا بد أن أوقعه بهم في الوقت الذي قضيت به في الأزل، لأنه أحق الأوقات بعقابهم لتكامل ذنوبهم، وحينئذ تكون فيا له من تهديد ما أفظعه، ووعيد ما أعظمه وأوجعه، أمراً لا يدفعه دافع، ولا يمنع من وقوعه مانع، ولذلك ســبب عنه قوله: {فويل} أي شر حال وعذاب يوجب الندب والتفجع {للذين كفروا} أي ستروا ما ظهر من هذه الأدلة التي لا يسع عاقلاً إنكارها {من يومهم} إضـافة إليهم لأنه خاص بهم دون المؤمنين {الذي يوعدون *} في الدنيا والآخرة، وقد انطبق آخرها على أولها بصدق الوعيد، وثبت بالدليل القطعي لك القسم الأكيد- والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.